عنوان المقال

مصطلح الغرض و موضوع الأدب

الدكتور/ محمد السعيد عبدلي أستاذ التعليم العالي

قسم اللغة العربية و آدابها جامعة البليدة 2

تعد مسألة التمييز بين مصطلحي الغرض (Le motif) والموضوع (Le thème) إحدى المسائل الرئيسية التي أولاها "ريمون تروسون" عناية كبيرة في دراساته التي أنجزها حول "علم الموضوعات" (La thématologie)، وهو العلم الذي يعتبر فرعا من فروع الأدب المقارن. وقد برزت تلك العناية بالخصوص في كتابيه: "دراسات الموضوعات: مشكلة في الأدب المقارن" و"موضوعات وأساطير".

وقبل أن نستعرض آراءه حول التشابه والاختلاف الموجود بين المصطلحين نتوقف بداية عند المعاني التي أعطتها معاجم اللغة لمصطلح الغرض.

جاء في لسان العرب: ((الغرض شعبة في الوادي أكبر من الهجيج، والجمع: غرضان. يقال: أصابنا مطر أسال زهاد الغرضان، وزهادها صغارها. والغرض: هو الهدف الذي ينصب فيرمى فيه، والجمع: أغراض.))[1]

يمكن أن نستنتج من هذا التعريف مفهومين: الأول هو المعنى العام الذي يقدمه لنا لفظ "الوادي"، الذي يعني سبيلا معينة يسيل فيها ماء المطر، نحو "مركز" منخفض ما. أما المفهوم الثاني فهو الهدف أو الغاية التي تشكل بدورها مركزا توجه نحوه الرميات التي تنطلق من نقطة أو نقاط معينة، صانعة مسارا شبيها، في جوهره، بمسار الوادي الذي تشكله المياه في جريانها نحو مصبها. وهو بذلك مفهوم لا يختلف في جوهره عن المفهوم الأول.

وجاء في "معجم روبير: المعجم التاريخي للغة الفرنسية": ((الدافع Motif: كلمة لاتينية، موتيفوس Motivus: تعني الحركة. ما يدفع إلى الحركة. سبب التحرك. في الفنون: الموضوع الذي يسيطر على مؤلف، على عمل، موسيقى، رسم، وغير ذلك. تحفيز، حافز.))[2]

إذا حاولنا تسجيل نقطة من نقاط التقاء هذا التعريف بتعريف ابن منظور، فستكون اشتراكهما في معنى "الحركة" التي تكون بالانتقال من نقطة إلى أخرى. وهذا المعنى كان محددا في التعريف الأول وبقي عاما في التعريف الثاني.

ونجد في"معجم اللغة الفرنسية" حول هذا المصطلح المعاني الآتية: ((الدافع motif: السبب الذي يحدد أو يشرح حدوث فعل أو سلوك ما. أسباب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرفض. الحافز Motivation: مجموع العوامل الواعية وغير الواعية التي تحدد فعلا أو سلوكا ما.))[3]

يركز هذا التعريف بالخصوص على السبب الذي يقف وراء إنجاز فعل معين. وإذا حاولنا أن نتصور كيفية حدوث هذا الإنجاز فإننا نجده يتجسد بفضل الحركة التي تكون عن طريق الانتقال من نقطة إلى أخرى، أو من حالة إلى أخرى، أو من وضع إلى آخر. وهذه صورة تشترك في جوهرها مع ما استخلصناه أعلاه من تعريف ابن منظور وتعريف معجم روبير. فمفهوم الغرض والدافع والحافز في هذه التعريفات الثلاثة، هو: ما يدفع إلى القيام بعمل، بسلوك، بإنجاز أمر ما.

وأورد "معجم لاروس" لهذا المصطلح تعريفا مشتركا في كل من "لاروس الصغير" و" لاروس: المعجم الموسوعي" جاء فيه : ((الحافز Motif: سبب ذو صفة عقلية يدفع إلى فعل شيء ما، إلى الإتيان بمبادرة ما. في الفنون: موضوع، بنية جمالية تتكرر في أغلب الأعمال.))[4] يلتقي هذا التعريف للمصطلح كما نرى، مع التعريفات الثلاثة السابقة، كونه يحمل مثلها معنى السبب الذي يحرك الإنسان أو يدفعه للقيام بإنجاز فعل يحقق الانتقال من حالة معينة إلى حالة أخرى جديدة.

من هنا يتبين لنا التقارب الموجود بين المعاني التي تعطيها القواميس العربية والمعاني التي تعطيها القواميس الفرنسية لمفهومي الموضوع والغرض. فإذا كان مفهوم الموضوع هو مفهوم يرتبط أكثر بمجال الإنتاج الفكري والإبداعي، لأنه يدل على "ما يعبر عنه الكلام أو يكتب من أجله"، فإن مفهوم الغرض يشمل المجال الفكري وغيره من مجالات الحياة الأخرى؛ لكونه يدل على "ما يدفع إلى القيام بالفعل"؛ وهذا الفعل قد يكون إنجازا علميا، إبداعيا، بدنيا، وغيرها من الأعمال والسلوكات الكثيرة التي يؤديها الإنسان في الحياة. أما العلاقة بينهما فتتمثل أولا: في كونهما إنتاجا فكريا أو شعوريا، واعيا أو غير واع. ثانيا: إن الموضوع (Le thème) يكون استجابة واعية أو غير واعية للغرض، أي أن الموضوع يتأخر عن الغرض ويكون نتيجة له. هذا على مستوى ما تقدمه القواميس اللغوية السابقة لمفهوم "الغرض" (Motif).

وإذا ذهبنا إلى ريمون تروسون فسنجده ينطلق في محاولة لتحديد مفهوم الغرض وعلاقته بالموضوع من السؤال: ((موضوع أم أغراض؟))[5] فيشير إلى التداخل الكبير الذي يعاني منه المصطلحان في الساحة الثقافية والفنية، إذ كثيرا ما يعاملان على أساس أنهما يدلان على مفهوم واحد، فيقول: ((إن هذا الوضع يمكن أن يؤدي إلى حدوث غموض، وعدم دقة مؤسفة لما يكون القصد من البحث هو تناول أحدهما دون الآخر.))[6] وإذا كان هذا التداخل المفروض على المفهومين لا يشكل عقبة كبيرة لإنجاز بعض الأعمال الفكرية، ذات الطابع العام والشمولي، كدراسة السيرة الذاتية مثلا، فإن الأمر يختلف عندما يتم إنجاز دراسة في مجال علمي خاص، حيث تهدف الدراسة في هذه الحال إلى تحقيق الدقة العلمية اللازمة.

من هنا تبدو أمامه ضرورة وضع تعريفين لتحديد دلالة المصطلحين، فيقول عن الغرض: ((إنه كل بساط قاعدي، أو مفهوم واسع يسعى إلى تعيين موقف ما، كالثورة مثلا. أو تعيين حالة قاعدية غير خاصة، بحيث لم يتم بعد تشخيص

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفواعل فيها؛ من ذلك مثلا، موقف الرجل أو سلوكه بين امرأتين؛ أو الصراع بين أخوين، أو بين أب وابنه؛ أو حالة المرأة المنبوذة. فنحن هنا أمام حالات محددة في خطوطها العامة، ومواقف معروفة مسبقا، وحتى أمام نماذج واضحة، مثل الثائر، و"مغري النساء". ولكن كل هذه الحالات تبقى في مستوى المفاهيم العامة.))[7] أما عن تعريفه للموضوع، فيقول: ((إنه التعبير الخاص والمتفرد عن الغرض. وبتعبير آخر، هو الانتقال من العام إلى الخاص.))[8]

بعد هذين التعريفين المحددين لمصطلحي الغرض والموضوع، تصبح مسألة معرفة المادة التي يشتغل عليها الأدب أمرا ممكنا عند ريمون تروسون؛ فما دام "الغرض" مفهوما عاما، واسعا وشاملا، و"الموضوع" مفهوما خاصا ومحددا بنصه؛ والنص الأدبي إبداعا متفردا تحققت فيه خصوصية جمالية تميّزه عن غيره من النصوص، فقد أصبح واضحا أن الغرض هو المادة الخام التي يشتغل عليها الأدب، يقول ريمون تروسون: ((نستخلص من تعريفاتنا للغرض وللموضوع أن مادة الأدب ليست الموضوع وإنما هي الغرض.))[9]

ومن هنا فالغرض ليس دافعا أو حافزا يحث الفكر والشعور على إنتاج "الموضوع"، وإنما هو منبع تصدر منه مجموعة مفتوحة من الموضوعات، يكون هو صانع لألوانها ولخصائصها العامة؛ مما يسمح لها بتشكيل صنف معين بين موضوعات الأدب، التي تنتظم بدورها في مجموعات.

فالحب أو الغزل هو غرض من أغراض الأدب الهامة والمعروفة؛ وكل نص أدبي يتناول هذا الغرض يكون تجسيدا أدبيا خاصا لهذا الغرض، ونعتبر موضوع هذا النص الأدبي هو موضوع "الحب"، وقد تم بناؤه بناء فنيا خاصا. ومن هنا نخلص إلى القول في هذا السياق: إن الموضوع هو التجسيد الأدبي الخاص للغرض. وحيث أن النص لا يكون إبداعا أدبيا إلا إذا حقق خصوصيته الفنية الجمالية، فإن كل مجموعة من النصوص تحقق هذا الشرط، ويكون موضوعها هو الحب، فهي تشترك في انتمائها إلى غرض الحب أو الغزل. ويبقى الغرض مفهوما عاما لا يرتبط بمجال فكري أو إبداعي محدد، دون المجالات الفكرية والإبداعية الأخرى. فالحب مثلا، يبقى مفهوما عاما يمكن أن تتناوله الدراسة الاجتماعية، والنفسية، والبيولوجية؛ كما يكون أيضا موضوعا للنص الأدبي. والحرب "غرض"، يمكن أن تكون موضوعا للدراسة السياسية والتاريخية، والاجتماعية، والفلسفية؛ وموضوعا كذلك للنص الأدبي. وهكذا، فموضوع أي نص أو غرضه يحددهما المجال الفكري والإبداعي الذي ينتمي إليه هذا النص نفسه.

ومن خلال هذا التوضيح لعلاقة كل من المصطلحين ببعضهما بعضا من جهة، وعلاقتهما بالنص الأدبي من جهة أخرى، يخلص ريمون تروسون إلى القول إن: ((الغرض عنصر غير أدبي، ولكنه مادة الأدب. أما الموضوع فهو يجسد الغرض ويميزه، محققا بذلك أدبيته، لأن الموضوع لا يحقق وجوده إلا انطلاقا من اللحظة التي يعبر الغرض فيها عن نفسه من خلال عمل أدبي.))[10]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليس من المستبعد أن يكون هذا التوضيح قد فتح مجالا لظهور تساؤلات حول ما إذا كان من الممكن ظهور مجموعة من النصوص ذات موضوعات متعددة، مادامت جميعا تصدر عن غرض واحد فقط؟ الإجابة عن هذا التساؤل تقدمها لنا النصوص الأدبية أولاً، ويؤكدها ريمون تروسون ثانيا. فالقصائد التي تناولت غرض الخمرة في شعر أبي نواس مثلا، تعدّ بالعشرات في ديوانه، ولكن كل قصيدة تتناول موضوعها من زاوية خاصة بها، مما يجعلها تختلف عن بقية القصائد، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، فكل تلك القصائد تصدر عن غرض شعري واحد هو غرض الخمرة. أما تأكيد ريمون تروسون لهذه الحقيقة فقد عبّر عنها بقوله: ((تستمر الموضوعات التي يجمعها غرض واحد في تحقيق اختلافات عن بعضها بعضا عند مجموعة من الكتاب، حتى وإن كانوا يعيشون في عصر واحد وينتمون إلى حضارة واحدة ومذهب فكري واحد.))[11] وبعد أن يوضح أن هذا الاختلاف أمر ثابت حتى بين الموضوعات التي ينتجها كاتب واحد داخل الغرض نفسه، يخلص إلى القول: ((إن من يزعم أننا يمكن الذهاب بعيدا فنقوم بإذابة عدة موضوعات في مرجل واحد فقط، هو كمن يزعم أن جميع اللوحات التي يغلب عليها اللون الأزرق هي لوحات تشترك في موضوع واحد.))[12]

هكذا يوضح ريمون تروسون الاختلاف الجوهري القائم بين مفهوم الغرض ومفهوم الموضوع، و يؤكد على أهمية التمييز بين المفهومين، مع ضرورة الانتباه إلى أن الغرض الواحد لا يترتب عنه أبدا تطابق بين الموضوعات التي تتفرع عنه، وإنما لكل موضوع نص أدبي له شخصيته المتميزة التي بفضلها يحقق جوهره كإبداع متفرد.

ولابد في الأخير، من الإشارة إلى أن ريمون تروسون قد استفاد في بناء آرائه المتطورة هذه، عن مصطلحي "الغرض" و"الموضوع"، من بعض الأعمال التي حاول فيها أصحابها تحديد الفروق الموجودة بين المصطلحين وإظهار العلاقة القائمة بينهما؛ وهذا حسب ما يشير هو نفسه إليه في إحالات كثيرة من كتابه: "موضوعات وأساطير". من ذلك هذا الكلام الذي يثبته للعالم اللغوي "ليتري"[13] (Littrés) يتحدث فيه عن الموسيقى قائلا: ((الغرض هو جملة من المقطع الذي يسيطر في كامل الأغنية، وأن الموضوع هو الغرض المحدد بقدر كاف، والمؤهل لأن يكون محلّ إنجاز عدة تعديلات.))[14]

من هنا يبدو لنا أن العمل الهام الذي أنجزه ريمون تروسون الرامي إلى توضيح الحدود الفاصلة بين مصطلحي الغرض والموضوع، مع تحديد العلاقة القائمة بينهما، بحيث أن الثاني هو توسيع للأول وتفصيل له، هو عمل تعود محاولات القيام بإنجازه إلى وقت متقدم، ذلك بسبب ما تمت ملاحظته من سهولة وقوع الدارسين في الخلط بين المصطلحين الذي قد يؤدي إلى التقليل من أهمية جهودهم الرامية إلى إنجاز دراسات تتوفر على الدقة والوضوح.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1 ـ لسان العرب، مادة "غرض".
2- Le Robert: dictionnaire historique de la langue française; Paris 1992, P. 1278.
3 - Dictionnaire de la langue française; Paris 1993, P.853.
4- Le Petit Larousse, (Grand Format); 1998, P.672, et, Larousse dictionnaire encyclopédique; 1994, P.676.
5- Raymond Trousson, « Les études de thèmes: un problème de littérature comparée »; Lettre Moderne, Paris 1963, P.11.
6- Raymond Trousson, « Les études de thèmes: »; ... P.12.
7 - Raymond Trousson, « Thèmes et mythes: questions de mythodes »; Editions de l'université de Bruxelles, 1981, P.22
8- Ibid; P.22-23
9- Ibid; P.24.
10- Raymond Trousson, « Thèmes et mythes: »; P.25....
11- Ibid; p.28.
12- Ibid; p.28
13 - ليتري (1801-1881) هو مؤلف أحد أشهر القواميس باللغة الفرنسية تحت عنوان " Dictionnaire de la langue française " وهو أحد تلامذة الفيلسوف الوضعي أوغيست كونت.
41- Ibid; p.129.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com